مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السابع عشر، العدد الثاني، ص1- ص21 يونيو 2009
ISSN 1726-6807, http://www.iugaza.edu.ps/ara/research/

فن الرثاء بين عصرين ؛ المملوكي والعثماني

أ.د. نبيل خالد أبو علي

كلية الآداب– قسم اللغة العربية

الجامعة الإسلامية – غــزة – فلسطين

ملخص: يدرس هذا البحث شعر الرثاء في العصرين المظلومين: المملوكي والعثماني ، ويحاول الكشف عن خصائصه الفنية ، لكي يتمكن من تبوء المنزلة التي يستحقها بين شعر الرثاء في مختلف العصور.

وهو لا يسعي للدفاع عن العصرين الموصوف أدبهما بالضعف والانحطاط بطريقة خطابية لا تجدي نفعاً، بل يترك العنان لشعر العصرين لكي يظهر مدي الجور والظلم الذي تعرض له من الدارسين الذين ما زالوا يعرضون عنه ، ويكتفون بترديد أقوال أعداء العربية والإسلام.

وقد توزعت الدراسة علي أربعة مباحث ، اهتم الأول منها رثاء المدن في العصر المملوكي، واهتم الثاني برثاء المدن في العصر العثماني ، والثالث وقف علي المعاني التي رثا بها الشعراء القادة ورجال الدولة في العصر المملوكي، واهتم الأخير بدراسة هذه المعاني في شعر العصر العثماني ، وقد قصد الباحث التوالي بين المملوكي والعثماني لكي لا يقول قائل كان هذا الشعر مقبولاً في العصر المملوكي مسفاً في العصر العثماني.

Elegy Poetry in the Mamlouk and Ottoman Ages

Abstract: This paper studies elegy poetry in the Mamlouk and Ottoman periods. It attempts to explore aesthetic features in both ages in order to take the place it deserves in the canon of elegy poetry.

Moreover, this paper seeks to shed light on elegy poetry in both eras to correct some misconceptions posed by western anti-Arab/Islam critics.

The study is divided into four sections: the first focuses on lamentation of cities poetry in the Mamlouk era; the second on the same genre in the Ottoman; the third on lamentation of leaders and statesmen poetry in the Mamlouk era; the fourth on the same genre in the ottoman era. The two ages are successively studied to show the excellence of elegy poetry in both eras.

تقديم:

سيقف هذا البحث على فن من فنون الأدب العربي في العصرين المظلومين– فن الرثاء– ويبين بالدليل والشاهد الشعري أن أعداء الإسلام هم سبب هذا الظلم ، وأن وصف نتاج العصرين بالضعف والانحطاط لا يستند إلى دراسات موضوعية ، ويدلل على ذلك بدراسة شعر كوكبة من شعراء العصرين ، ثم يقف على بعض الشعراء الذين يُعدون شعراء بعث وإحياء وتجديد في مطلع العصر الحديث كأحمد شوقي ومحمود سامي البارودي ومعروف الرصافي ... وهم من العصر العثماني المفترى عليه.

ويهدف هذا البحث إلى:

- كشف زيف ما قرره القس دنلوب– مستشار وزارة المعارف المصرية إبان الاحتلال الانجليزي لمصر– وأتباعه من العرب والمسلمين حول تخلف العصرين:المملوكي والعثماني، وانحطاط مستوى الإبداع فيهما.
- لفت أنظار الدارسين والمهتمين بالأدب العربي إلى الكنوز الأدبية والدرر الفنية المغيبة في دهاليز العصرين.
- تنبيه الدارسين إلى خطورة ما ورثوه من مصطلحات، كوصف العصرين بالركود أو الانحطاط والتخلف،ووصف مطلع العصر الحديث بالبعث والإحياء والتجديد...وحثهم على عدم توريث هذه المصطلحات الماكرة التي طالما صرفت اهتمام الدارسين عن تراث الأجداد المجيد.
- توجيه عناية الباحثين إلى الأخطاء التي يقعون فيها حينما يوازنون بين العصرين والعصر الحديث ، بين التخلف والنهوض كما يزعمون ، ويصفون شعراء كالبارودي وأحمد شوقي ومعروف الرصافي وإسماعيل صبري وغيرهم بأنهم شعراء البعث والإحياء ، وتنبيههم إلى وجود هؤلاء الشعراء في العصر العثماني.

إلى غير ذلك من الأهداف الجليلة التي يصعب حصرها في هذا المقام.

وأكاد أقطع بأن ما هدف إليه السير كرومر الحاكم العسكري لمصر، وممثله في وزارة المعارف المصرية القس دنلوب قد أفلحا في تحقيقه ، حيث صرفا همم الدارسين عن الخوض في هذين العصرين ، حيث لم أقف على دراسات أو أبحاث حاول أصحابها إنصاف العصرين ، أو على الأقل التشكيك فيما وصفا به من أوصاف الضعف.

لذلك أرى هذا البحث جديداً في موضوعه، فريداً في مسعاه وما يتوخاه من أهداف، وأنه يقف إلى جانب البحوث التي أعددتها حول إبداع هذين العصرين ، ويضيف حلقة من الحلقات العديدة التي ما زالت تنتظر جهود الباحثين لاستكمالها.

فن الرثاء بين عصرين المملوكي والعثماني

ولتحقيق هذه الغايات الجليلة سيعمد الباحث إلى تعريف فن الرثاء وأقسامه ، وأهم ما اتصف به في العصور التي سبقت العصرين:المملوكي والعثماني، ثم البحث في بواعث هذا الفن وأسباب ازدهاره في العصرين ، ثم عرض نماذج شعرية تُمثِّل معانيه وأوجه التجديد فيه.

كذلك سيحرص الباحث على تضمين الحواشي تراجم لكل الشعراء الذين سيرد ذكرهم في ثنايا البحث ، الأمر الذي سيُمَكِن القارئ من معرفة حجم الظلم الواقع على العصرين ، والخطأ المُتعَمَّد في إخراج العديد من هؤلاء الشعراء المبدعين من عصرهم العثماني،ونسبتهم إلى العصر الحديث ، وجعلهم رواد البعث والإحياء والتجديد.

الإحساس بالحزن إحساس فطري صادق ، والتعبير عنه تعبير عن معاني الفقد ، وترجمة لما يكابده الإنسان من مشاعر الحزن والأسى ، وعلى أساس قوة العاطفة وفتورها قسم شوقي ضيف شعر الرثاء إلى ثلاثة أقسام:-

1- **الندب**: وهو أقوى أنواع الرثاء عاطفة لأن الشاعر يبكي فيه نفسه أو جزءاً من كيانه ، "والندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية ، وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع"([1])، لذا فإن هذا النوع من الرثاء نجده في بكاء الأبناء والأقارب المقربين ، ومنه أيضاً بكاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وبكاء المدن والممالك الزائلة.

2- **التأبين**: هو شعر المواقف الرسمية ، وفيه تراوح العاطفة بين الفتور والمجاملة التي يعوزها الصدق ، ويرثي الشاعر فيه ذوي الجاه والسلطة ، كالخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء ، ويجتهد في تعديد مناقب الميت وصفاته.

3- **العزاء**: وفيه تخف شدة الصدمة ويعود الشاعر إلى نفسه يفكر في الكون وخالقه ، والوجود والعدم ، ويحلل من خلالها حقيقة الموت حسب فلسفته الخاصة ، لذا غالباً ما تكون معاني هذا النوع من الرثاء حكيمة ، كما تتسم بالعمق والغوص في دخيلة النفس أو الكون ، كما تتسم عاطفته بالهدوء([2]).

ولعل رثاء الأبطال الذين استشهدوا في ساحات المعارك ، والدول الزائلة ، والمدن المدمرة من أبرز أنواع الرثاء في العصرين المملوكي والعثماني ، ويصنف هذا الرثاء تحت الأقسام

([1]) شوقي ضيف: الرثاء ، طبعة دار المعارف ، مصر 1979م، 12.

([2]) شوقي ضيف: السابق 13.

الثلاثة سابقة الذكر ، لأن العاطفة فيه تعلو عند شاعر وتنخفض عند آخر ، وذلك بخلاف رثـــاء الأبناء الذي لا تختلف فيه حدة الحزن عند الشعراء.

رثاء المدن:

وأول ما يصادفنا من شعر رثاء المدن في هذا العصر ما قاله الشعراء في رثاء مدينة بغـــداد بعد سقوطها في أيدي التتار سنة 656 هجرية ، وتخريبها والعبث بأرواح سكانها ومقدراتهم([1])، ومنه رثاء تقي الدين إسماعيل بن أبي اليسر([2]) الذي يقول([3]):

لـــسَائِلِ الـــدَّمْعِ عَـــنْ بَغْـــدَادَ أَخْبَـــارُ ... فَمَا وُقُوْفُـــكَ وَالأَحْبَـــابُ قَـــدْ سَـــارُوا

يَا زَائِـــرِيْنَ إِلَـــى الـــزَّوْرَاءِ لا تَفِـــدُوا ... فَمَـــا بِـــذَاكَ الحِمَـــى وَالـــدَّارِ دَيَّـــارُ

تَاجُ الخِلافَةِ والرَّبْـــعُ الـــذِّي شَـــرُفَتْ ... بِـــــهِ المَعَـــالِمُ قَـــدْ عَفَّـــاهُ إِقْفَـــارُ

أَضْحَىْ لِعَطْفِ البِلَى فِـــيْ رَبْعِـــهِ أَثَـــرٌ ... وَلِلـــــدُّمُوْعِ عَلَـــــى الآثَـــــارِ آثَـــــارُ

يَا نَارَ قَلْبِي مِنْ نَـــارٍ لِحَـــرْبٍ وَغَـــى ... شَبَّتْ عَلَيْهِ وَوَافَـــى الرَّبْـــعَ إِعْـــصَارُ

عَلا الـــصَّلِيْبُ عَلَـــى أَعْلَـــى مَنَابِرِهَـــا ... وَقَامَ بِـــالأَمْرِ مَـــنْ يَحْوِيْـــهِ زُنَّـــارُ([4])

وَكَمْ حَـــرِيْمٍ سَـــبَتْهُ التُّـــركُ غَاصِـــبَةً ... وَكَانَ مِنْ دُوْنِ ذَاكَ الـــسِّتْرِ أَسْـــتَارُ([5])

وَكَمْ بُدُوْرٍ عَلَـــى البَدْرِيَّـــةِ انْخَـــسَفَتْ ... وَلَـــمْ يَعُـــدْ لِبُـــدُوْرٍ مِنْـــهُ إِبْـــدَارُ([6])

وَكَمْ ذَخَـــائِرَ أَضْـــحَتْ وَهْـــيَ شَـــائِعَةٌ ... مِـــنَ النُّهَـــابِ وَقَـــدْ حَازَتْـــهُ كُفَّـــارُ

وَكَـــمْ حُـــدُوْدٍ أُقِيْمَـــتْ مِـــنْ سُـــيُوفِهِمُ ... عَلَـــى الرِّقَـــابِ وَحُطَّـــتْ فِيْـــهِ أَوْزَارُ

نَادَيْـــتُ وَالـــسَّبْيُ مَهْتُـــوْكٌ يَجُـــرُّهُمُ ... إِلَـــى الـــسِّفَاحِ مِـــنَ الأَعْـــدَاءِ دُعَّـــارُ

([1]) راجع: عبد الحكيم راضي وآخرون: أوراق بغداد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 2003 ، ص 364– 368 . وكذلك العديد من القصائد التي تتحدث عن هذه الكارثة.

([2]) هو الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي.

([3]) النجوم الزاهرة 48/7– 49. شذرات الذهب 271/5– 272.

([4]) الزنار: الحزام ، وهو ما كان يلبسه الصليبي ورجل الدين المسيحي على وسطه . ويشير الشاعر في البيت إلى التعاون بين النصارى والتتار ، حيث كان هولاكو يُنَصِّب حاكماً صليبياً على البلد الذي يحتلـــه ، بعـــد نهبـــه وتخريبه ، ويخرج بجيشه لاجتياح بلد آخر. وكان هولاكو يعطف على النصارى ويوفر لهم الحماية والرعايـــة لأن زوجه "دفور خاتون" كانت نصرانية ، وقد اختبأ بعض المسلمين في بيوت النصارى للنجاة بأنفـــسهم مـــن أيدي التتار.

([5]) يقصد الشاعر بـــ "الترك" التتار وأعوانهم من النصارى الصليبيين.

([6]) البدرية: نسبة إلى بدر مولى الخليفة المعتضد الذي زاد في القصر مسقطات عُرفت بالبدرية.

وَهُمْ يُسَاقُوْنَ لِلْمَـوْتِ الـذِّي شَـهِدُوا ... النَّـارُ يَـا رَبِّ نَـصْلاَهَا وَلا العَـارُ
يَـا لِلْرِجَـالِ لأَحْـدَاثٍ تُحَـدِّثُنَا ... بِمَـا غَـدَا فِيْـهِ إعْـذَارٌ وَإِنْـذَارُ
مِنْ بَعْدِ أَسْـرِ بَنِـي العَبَّـاسِ كُلِّهِـمِ ... فَـلاَ أَنَـارَ لِوَجْـهِ الـصُّبْحِ إِسْـفَارُ
مَا رَاقَ لِي قَـطُّ شَـيءٌ بَعْـدَ بَيْـنِهِم ... إلاّ أَحَادِيْـثُ أَرْوِيْهَـا وَآثَـارُ
لَمْ يَبْقَ لِلـدِّيْنِ وَالـدُّنْيَا وَقَـدْ ذَهَبُـوا ... شَوْقٌ لِمَجْدٍ وَقَدْ بَـانُوا وَقَـدْ بَـارُوا
إنَّ القِيَامَةَ فِـي بَغْـدَادَ قَـدْ وُجِـدَتْ ... وَحَـدُّهَا حِـيْنَ لِلإِقْبَـالِ إِدْبَـارُ
آلُ النَّبِـيِّ وَأَهْـلُ العِلْـمِ قَـدْ سُـبِيُوا ... فَمَنْ تَـرَى بَعْـدَهُمْ تَحْوِيْـهِ أَمْـصَارُ
مَا كُنْتُ آمَـلُ أَنْ أَبْقَـى وَقَـدْ ذَهَبُـوا ... لَكِـنْ أَبَـى دُوْنَ مَـا أَخْتَـارُ أَقْـدَارُ

بكى الشاعر بغداد بكل ما في عينيه من دموع ، وتمكن من دمج القارئ في حالة الأسى والحزن التي تعتصر قلبه ، حيث وضعه في صورة ما فعله التتار في بغداد، وراوح بين الإجمال والتفصيل في وصف جرائمهم ، فمن الإجمال قوله: "ووافى الربع إعصار" تاركاً العنان لخيال القارئ لكي يدرك ما ألمَّ ببغداد من خلال معرفته بما يفعله الإعصار المدمر ، ثم يؤكد ما ذهب إليه من معاني الدمار والفناء فيرينا كيف أضحت الصلبان تعلو منابر المساجد ، وكيف حلَّ النصراني الصليبي مكان الخليفة "المستعصم" العباسي .. ويتوقف عند بعض التفاصيل فيصور ما فعله الغزاة التتار بالنساء ، فيقول: "السَّبْيُ مَهْتُوْكٌ يَجُرُّهُمُ إِلَى السِّفَاحِ مِنَ الأَعْدَاءِ دُعَّارُ" ، ويبثنا ما يعانيه جرّاء سبي نساء المسلمين واغتصابهن وهو يجأر إلى الله تعالى مستحضراً المثل القائل "النار ولا العار" في قوله : "النَّارُ يَا رَبِّ نَصْلاَهَا وَلا العَارُ" . ويذهب الشاعر مع معاني الحسرة على آل عباس حتى يتمنى أنه لو لم يعش إلى اليوم الذي يرى فيه هذه الفاجعة.

لقد ناح الشعراء على بغداد وأهلها بالعديد من القصائد السيارة([1])، وكان شمس الدين الكوفي([2]) أحد هؤلاء الشعراء الذين أدمت قلوبهم الفاجعة ، وسال الشعر من قرائحهم دموعاً حرّى،

([1]) أشار ابن الفوطي إلى بعض القصائد ، وكذلك ذكر محقق كتابه في الحواشي مطالع العديد من القصائد . كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي المعروف بابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق مهدي النجم ، الطبعة الأولى ، بيروت 2003م ، ص 239– 241.

([2]) هو محمود بن أحمد بن عبد الله بن داود الزاهد بن محمد بن علي الهاشمي ، شمس الدين الكوفي ، المولود سنة 623 هجرية ، كان أديباً فاضلاً ، عالماً شاعراً واعظاً ، ولي التدريس بالمدرسة التشيشية ، وخطب في جامع السلطان ببغداد . توفي سنة 675 هجرية. فوات الوفيات: 102/4. وقد ذكره ابن الفوطي باسم "شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الواعظ" . راجع : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، ص239.

قال والأسى يعتصر قلبه قصيدة جاء في مطلعها([1]):

عِنْدِي لأَجْلِ فِرَاقِكُم آلامُ   فَإِلامَ أُعْذَلُ فِيكُمُ وَأُلامُ
مَنْ كَانَ مِثْلِي للحَبِيْبِ مُفَارِقاً   لا تَعْذِلوهُ فَالكَلامُ كَلامُ
نِعْمَ المُسَاعِد دَمْعِيَ الجَارِي عَلَى   خَدَّيَّ إلاَّ أَنَّهُ نَمَّامُ
وَيُذِيْبُ رُوحِي نَوْحُ كُلِّ حَمَامَةٍ   فَكَأَنَّمَا نَوْحُ الحَمَامِ حِمَامُ([2])

ولمّا ضعف صبره على فراق الأحبة الذين عصفت بهم أيدي المنون بكاهم في قصيدة أخرى استهلها بقوله([3]):

مَلابِسُ الصَّبْرِ نُبْلِيْهَا وَتُبْلِيْنَا   وَمُدَّةُ الهَجْرِ نُفْنِيْهَا وَتُفْنِيْنَا
شَوْقَاً إِلَى أَوْجُهٍ مُتْنَا بِفُرْقَتِهَا   حُزْناً وَكَانَتْ تُحَيِّيْنَا فَتُحْيِيْنَا
أَحْزَانُنَا بِهِمُ لا تَنْقَضِي وَلَنَا   شَوْقٌ إِلَى سَاكِنِي يَبْرِيْنَ يَبْرِيْنَا
يَا دَهْرُ قَدْ مَسَّنَا مِنْ بَعْدِهِم حُرَقٌ   مِنَ الفُرَاقِ إِلَى التَّكْفِيْنِ يَكْفِيْنَا

وهاجت أحزانه فبكى حتى تقرحت أجفانه فقال قصيدة ثالثة تقطر معانيها مرارة وحسرة منها([4]):

إِنْ لَمْ تُقَرِّحْ أَدْمُعِي أَجْفَانِي   مِنْ بَعْدِ بُعْدِكمُ فَمَا أَجْفَانِي
إِنْسَانُ عَيْنِي مُذْ تَنَاءَتْ دَارُكُم   مَا رَاقَهُ نَظَرٌ إِلَى إِنْسَانِ
يَا لَيْتَنِي قَدْ مِتُّ قَبْلَ فِرَاقكم   ولِسَاعَةِ التَّوْدِيْعِ لا أَحْيَانِي
مَالِي ولِلأَيَّامِ شَتَّتَ صَرْفُهَا   حَالِي وَخَلاَّنِي بِلا خِلاَّنِ
مَا لِلْمَنَازِلِ أَصْبَحَتْ لا أَهْلُهَا   أَهْلِي وَلا جِيْرَانُهَا جِيْرَانِي
وَحَيَاتِكُمْ مَا حَلَّهَا مِنْ بَعْدِكُمْ   غَيْرُ البِلَى وَالهَدْمِ والنِيْرَانِ
وَلَقَدْ قَصَدْتُ الدَّارَ بَعْدَ رَحِيْلِكُمْ   وَوَقَفْتُ فِيْهَا وَقْفَةَ الحَيْرَانِ
وَسَأَلْتُهَا لَكِنْ بِغَيْرِ تَكَلُّمِ   فَتَكَلَّمَتْ لَكِنْ بِغَيْرِ لِسَانِ
نَادَيْتُهَا : يَا دَارُ مَا صَنَعَ الأُلَى   كَانُوا هُمُ الأَوْطَارَ فِي الأَوْطَانِ
أَيْنَ الذِيْنَ عَهِدْتُهُم وَلِعِزِّهِم   ذُلاًّ تَخِرُّ مَعَاقِدُ التِيْجَانِ
كَانُوا نُجُومَ مَنِ اقْتَدَى فَعَلَيْهِمُ   يَبْكِي الهُدَى وَشَعَائِرُ الإِيْمَانِ

([1]) فوات الوفيات 232/2– 233.

([2]) الحِمَام: الموت.

([3]) فوات الوفيات 102/4– 103.

([4]) فوات الوفيات 234/2– 235.

قَالَــتْ غَــدَوْ لَمَّــا تَبَــدَّدَ شَــمْلُهُمْ وَتَبَـــدَّلُوا مِـــنْ عِـــزِّهِم بِهَـــوَانِ
أَفْنَـــتْهُمُ غِيَـــرُ الحَـــوَادِثِ مِثْلَمَـــا أَفْنَـــتْ قَـــدِيْماً صَـــاحِبُ الإيْـــوَانِ([1])
لَمَّـــا رَأَيْـــتُ الـــدَّارَ بَعْـــدَ فِـــرَاقِهِمْ أَضْـــحَتْ مُعَطَّلَـــةً مِـــن الـــسُكَانِ
مَـــا زِلْـــتُ أَبْكِـــيْهِم وَأَلْـــثُمُ وَحْـــشَةً لِجَمَـــــالِهِم مُـــــسْتَهْدَمَ الأَرْكَـــــانِ
حَتَّى رَثَـــى لِـــي كُـــلُّ مَـــنْ لا وَجْـــدُهُ وَجْـــدِي وَلا أَشْـــجَانُهُ أَشْـــجَانِي

لقد استكمل الشاعر في هذه القصيدة([2]) معاني رثاء المدن وأفاض عليها من علاقته بالخليفة العباسي وحبه لأهل بغداد المنكوبين ما يدلل على قوة تجربته وصدق معاناته ، حيث رأيناه مذهولاً نائحاً يعلن يأسه وعزلته عن الناس بعد أن أخذت الفاجعة أحبته ، وبحسرة وأسى يتمنى لو أنه مات قبل فراقهم ، ثم يستفيق قليلاً من هول الصدمة ليتفقد منازل الأهل والخلان فيرى كيف عبثت بها أيدي المنون ، ودمّرت مبانيها وأحرقت حضارتها أيدي الخراب المغولية ، لقد بدا مشدوهاً يطوف بالمكان قليلاً، ويبكي كثيراً على كل مشهدٍ من مشاهد هذه النكبة.

كذلك خرّب التتار بعض مدن الشام في هجمتهم الشرسة الثانية على المشرق الإسلامي إبان حكم قائدهم "تيمورلنك" ، الذي أشبهت جرائمه جرائم "هولاكو" في بغداد، ففي سنة 803 هجرية زحف بجيشٍ جرار على مدينة حلب وبطش بأهلها بطشاً شديداً ، حتى تكدست جثث آلاف القتلى أكواماً في الشوارع والطرقات ، وأشعل في المدينة النيران ، وخرّب بيوتها ، ونهب أموالها ، وهتك أعراض نسائها في رابعة النهار([3]) ، وناح الشعراء على المدينة وأهلها بالعديد من القصائد المشجية التي تقطر حزناً وحسرة، من ذلك قول أحد شعراء حلب([4]):

وَيْلاَهُ وَيْلاَهُ يَـــا شَـــهْبَا عَلَيْـــكِ وَقَـــدْ كَـــسَوْتِنِي ثَـــوْبَ حُـــزْنٍ غَيْـــرَ مُنْـــسَلِبِ
مِنْ بَعْدِ ذَاكَ العُلا بِـــالعِزِّ قَـــدْ حَكَمَـــتْ بِالـــذُّلِ فِيْـــكِ يَـــدُ الغَيْـــارِ وَالنُّـــوَبِ
وَحِيْنَ جَـــاءَ قَـــضَاءُ الله مَـــا دَفَعَـــتْ عَنْـــكِ الجِيُـــوْشُ والـــشُّجْعَانُ بِالقُـــضُبِ
وَأَصْبَحَ المُغْـــلُ حُكَامـــاً عَلَيْـــكِ وَلَـــمْ يَرْعُوْ لِجَـــارِكِ ذِي القُرْبَـــى وَلا الجُنُـــبِ
وَفَرَّقُـــوا أَهْلَـــكِ الـــسَادَاتِ فَانْتَـــشَرُوا فِيْ كُـــلِّ قُطْـــرٍ مِـــنَ الأَقْطَـــارِ بِـــالهَرَبِ

([1]) صاحب الإيوان: كسرى.

([2]) انظر: باقي الأبيات في: فوات الوفيات 234/2– 234.

([3]) انظر: النجوم الزاهرة 178/12– 179.

([4]) لم يذكر صاحب كتاب إعلام النبلاء الذي أورد القصيدة اسم الشاعر. راجع: محمد راغب بن محمود الطبّاخ : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، المطبعة العلمية ، حلب 1342 هجرية.

وَبُدِّلُوا مِــنْ لِبَــاسِ الــدِّيْنِ ذَا خَــشَنٍ نَعَمْ ، وَمِــنْ رَاحَــةِ الأَبْــدَانِ بِالنَّــصَبِ
وَكُلُّ مَا كَانَ مِــنْ مَــالٍ لَــدَيْكِ غَــدَا فِيْ قَبْضَةِ المُغْلِ بَعْــدَ الــوَرَقِ والــذَّهَبِ
وَخَرَّبُوا رَبْعَكِ المَعْمُوْرَ حِــيْنَ غَــدُوا يَسْعَوْنَ فِــيْ كُــلِّ نَحْــوٍ مِنْــهُ بِالنَّكْــبِ
وَخَرَّبُــوا مِــنْ بُيُــوْتِ اللهِ مُعْظَمَهَــا وَمَزَّقُوا مَا بِهــا مِــنْ أَشْــرَفِ الكُتُــبِ
كَــذَا بِــلادُكِ أَمْــسَتْ وَهْــيَ خَاوِيَّــةٌ وَأَصْــبَحَتْ أَهْلُهَــا بِــالخَوْفِ وَالرَهَــبِ
لَكِنْ مُصِيْبَتُكِ الكُبْــرَى التِّــي عَظُمَــتْ سَبْيُ الحَــرِيْمِ ذَوَاتِ الــسِتْرِ وَالحُجُــبِ
مِنْ كُلِّ جَارِيَــةٍ كَالــشَّمْسِ مَنْظَرُهَــا وَلا يَرَاهَــــا سِــــوَى أُمٍ لَهَــــا وَأَبِ
يَأْتِي إِلَيْهَــا عَــدُوُّ الــدِّيْنِ يَفْــضَحُهَا وَيَجْتَلِيْهَــــا عَلَــــى لاهٍ وَمُرْتَقِــــبِ

يضعنا الشاعر من بداية القصيدة في أجوائه النفسية الحزينة التي تتجسد في آهاتــه ونواحــه على ما أصاب مدينة حلب الشهباء على أيدي تيمورلنك وجيشه المغولي ، ثم يبين كيــف تبــدل حالها من عزّ إلى ذل ، ويعدد المصائب التي حلَّت بها من نهب أموال ، وتخريب المنازل وبيوت العبادة ، وتمزيق المصاحف ، وترويع الناس ، وسبي النساء ، وكشف عــوراتهن ، والاعتــداء عليهن.

وقد لاحظنا أن أسى الشاعر وحزنه لم يمكنه من تصوير تفاصيل الفاجعة التي ألمت بالمدينة، وأن حزنه وإن كان واضحاً فإنه لا يوازي فداحة المصاب ، ووصفه للفاجعة لا يبلغ حقيقتها كمــا ذكرها المؤرخون ، إنه لا يوازي بعض ما ذكره ابن تغري بردي في قوله : "وقد اقتحم عــساكر تيمور مدينة حلب في الحال ، وأشعلوا فيها النيران وأخذوا في الأسر والنهب والقتــل ، فهــرب سائر نساء البلد والأطفال إلى جامع حلب وبقية المساجد ، فمــال أصــحاب تيمــور علــيهن ، وربطوهن بالحبال أسرى ثم وضعوا السيف في الأطفال ، فقتلوهم بأسرهم وشــرعوا فــي تلــك الفعال القبيحة على عادتهم ، وصارت الأبكار تفتض من غير تستُّر ، والمخدّرات يُفسق فيهن من غير احتشام ، بل يأخذ التّتّري الواحدة ويعلوها في المسجد والجامع بحضرة الجَــمّ الغفيــر مــن أصحابه ومن أهل حلب ، فيراها أبوها وأخوها وزوجها وولدها ولا يقدر أن يــدافع عنهــا لقلّــة مقدرته ، ولشغله بنفسه بما هو فيه من العقوبة والعذاب ..

ثم بذلوا السيف في عامة حلب وأجنادها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بــالقتلى، وجافــت حلب ، واستمر هذا من ضحوة نهار السبت إلى أثناء يوم الثلاثاء .. ثم سيقت إليه – إلى تيمور – نساء حلب سبايا وأحضرت إليه الأموال والجواهر والآلات الفــاخرة ، ففرّقهــا علــى أمرائــه وأخصّائه . واستمر النهب والسبي والقتل بحلب في كل يوم ، مع قطع الأشجار وهَــدْم البيــوت

وإحراق المساجد ، وجافت حلب وظواهرُها من القَتْلَى ، بحيث صارت الأرض منهم فراشـاً ، لا يجد الشخص مكاناً يمشي عليه إلاّ وتحت رجليه رِمّةُ قَتيل . وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منابر عدّةً مرتفعةً من الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعاً ، حُسِبَ ما فيها من رؤوس بني آدم فكان زيادة على عشرين ألف راس ، ولمّا بُنِيَتْ جعلت الوجوه بارزة يراها مَنْ يَمُر بها"([1]).

ولعل إيمان الشاعر بقضاء الله عزّ وجلّ وقدره ، واستسلامه لمشيئته هو الذي جعل حزنه يتئد ، وعاطفته تهدأ ، وجعله يدعو الله تعالى ألاّ تتكرر هذه المأساة متوسلاً بالنبي صلى الله عليه وسلم([2]):

وَلا نَقُولُ سِوَى سُبْحَانَ اللهِ مَنْ نَفَـدَتْ ... أَحْكَامُهُ فِي الـوَرَى حَقـاً بِـلا كَـذِبِ
فَنَسْأَلُ اللهَ بِالمُخْتَـار سَـيدِنَا ... مُحَمَدٍ ذِي التُّقَـى والطُّهْـرِ وَالحَسَبِ
أَنْ لا يُرِيْنَـا عَـدُّواً لَـيْسَ يَرْحَمَنَـا ... وَلا يُعَامِلَنَـا بِالمَقْـتِ وَالغَـضَبِ
بِجَـاهِ هَـذَا النَبِـيِّ الـسَنَدِ الهـا ... دِي الـشَفِيْعِ الرَفِيْـعِ القَـدْرِ وَالرُتَـبِ
صَـلَّى عَلَيْـهِ إِلَـهُ العَـرْشِ ... وَالآلِ وَالصَحْبِ سَادَاتِ الوَرَى النُّجُـبِ

لقد تابع الشعراء بدموعهم وقرائحهم جرائم المغول في بلاد ومدن المشرق الإسلامي التي لم يسلم منها سوى مصر والحجاز واليمن ، وأورثونا الكثير من القصائد التي تفيض حزناً وحسرة ، على البلاد والعباد([3]).

وأول ما يصادفنا في مطلع **العصر العثماني** رثاء دولة المماليك ، فلمّا أفل نجم المماليك بعد هزيمة جيشهم في الشام ، ووفاة سلطانهم "قنصوة الغوري" إثر هذه الهزيمة عام 922 هجرية، ثم إلقاء السلطان العثماني سليم الأول القبض على نائبه في مصر طومان باي وشنقه على باب زويلة في القاهرة عام 923 هجرية بكى العديد من الشعراء هذه الدولة الأبية ، ورثوا ما ذهب من مناقبها وبطولاتها ، من ذلك قصيدة طويلة لابن إياس يقول في صدرها([4]):

([1]) النجوم الزاهرة 179/12– 180.

([2]) إعلام النبلاء 138/5.

([3]) انظر مثلاً: رثاء كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم (توفي سنة 660 هجرية) لمدينة حلب . تاريخ ابن الوردي 208/2.

([4]) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 1982، 198/5– 202.

نُوحُـوا عَلَـى مِـصْرَ لأَمْـرٍ جَـرَى ... مِنْ حَـادِثٍ عَمَّـتْ مُـصِيْبَتُهُ الـوَرَى
زَالَتْ عَـسَاكِرُهَا مِـنَ الأَتْـرَاكِ فِـيْ ... غَمْضِ العُيُوْنِ كَأَنَّهَـا سِـنَةُ الكَـرَى
وَأَتَـى إِلَيْهَـا عَـسْكَرٌ سِـيْمَاهُم ... حَلْقُ الذِّقُونِ وَلِـبْسُ طَرطُـوْرٍ يُـرَى
لا يُعْـرَف الأُسْـتَاذُ مِـنْ غِلْمَانِـهِ ... وَأَمِيْـرُهُم بَـيْنَ الأَنَـامِ تَحَقَّـرَا
جَـلَّ الإِلَـهُ مُـصَدِّقاً عَمَّـا حَكَـى ... فِي سُـورَةِ الـرُّومِ العَظِيْمَـةِ أَخْبَـرَا
قَـدْ أَوْعَـدَ الـرَحْمَنُ وَعْـداً صَـادِقاً ... أَنَّ ابْنَ عُثْمَـانَ يَلِـي وَكَـذَا جَـرَى
وَلاَّهُ رَبُّ العَـرْشِ سُـلْطَاناً عَلَـى ... مِـصْرَ وَهَـذَا الأَمْـرُ كَـانَ مُقَـدَّرَا
أَيْنَ المُلُـوْكُ بِمِـصْرَ مَـنْ طَلْعَاتُهَـا ... مِثْلُ البُدُورِ تُـضِيءُ وَكَانَـتْ أَنْـوَرَا
يَا لَهْفَ قَلْبِـي لِلْمَوَاكِـبِ كَيْـفَ لَـمْ ... نَلْقَـى بِقَلْعَتِهَـا الحَزِيْنَـةِ عَـسْكَرَا
لَهْفِـي عَلَـى ذَاكَ النِّظَـامِ وَحُـسْنِهِ ... مَا كَانَ فِـي التَّرْتِيْـبِ مِنْـهُ أَفْخَـرَا

يبدأ ابن إياس مرثيته بحث المسلمين على بكاء مصر حاضرة دولة المماليك ، للمصيبة التي ألّمت بها والتي عمّت آثارها الناس جميعاً ، ثم يتمثل هذه المصيبة في زوال جيش المماليك في لمح البصر ، وحلول العساكر العثمانيين مكانهم ، ثم يستهجن شكل هؤلاء العساكر الذين لا يطلقون ذقونهم ، ويستهجن أيضاً لبسهم الطراطير وعدم تميز القائد عن عساكره.

وقبل أن يشرع في تعديد ما فات من مناقب المماليك والتحسّر على ما انقضى من أيامهم وصفاتهم نجده يُعَزِّي نفسه بأن هذه المصيبة مقدرة وأن الله تعالى أخبر عنها في سورة الروم ، ثم يبدأ في تعديد مناقبهم بأسلوب لا ينم عن إحساسه بحدوث مصيبة بالرغم مما نراه من عبارات اللهفة والأسى ، فالعاطفة تراوح بين الحزن على المماليك وبين التشفي بهم وتبرير زوال دولتهم، فمن شعر الحزن والأسى- إضافة لما ذكرناه - قوله([1]):

زَالَت مَحَاسِنُ مِـصْرَ مِـنْ أَشْـيَاء قَـدْ ... كَانَتْ بِهَا تَزْهُـو عَلَـى كُـلِّ الـوَرَى
لَهْفِي عَلَـى الأُمَـرَاءِ كَيْـفَ تَـشَتَّتُوا ... وَخَلَـتْ مَنَـازِلُهُم وَعَـدَتْ مُقْفِـرَا
لَهْفِي عَلَـى أَتْـرَاكِ مِـصْرَ إِذَا غَـدَتْ ... مَكْـسُورَةً وَقُلُوْبُهَـا لَـنْ تُجْبَـرَا
لَهْفِي عَلَـى الفُرْسَـانِ كَيْـفَ تَقَطَّعَـتْ ... أَعْنَاقَهَـا بِيَـدِ العَـدُوِّ إِذْ افْتَـرَى
صَارَتْ عَلَى الطُّرُقَـاتِ مِـنْ أَجْـسَادِهِمْ ... رِمَمٌ حَكَـتْ عِيْـدَ الـضَّحَايَا الأَكْبَـرَا

([1]) بدائع الزهور 5/199– 200.

ومما برر به زوال دولة المماليك والتشفي بهم قوله([1]):

لَمَّـــا تَكَبَّـــرَتْ الجَرَاكِـــسَةُ الـــذِّي كَانُوا بِمِـــصْرَ ذَلَّهُـــم رَبُّ الـــوَرَى([2])

وَأَذَاقَهُـــم ذُلَّ الـــسُّؤْالِ وَفَاقَـــةَ الـــ أَيْـــدِي وَأَدَّبَهُـــم بِمَـــا قَـــدْ أَقْهَـــرَا

وإجمالاً فقد توزعت عاطفة الشاعر ومعانيه في القصيدة بين العزاء والتأبين ، ولم تصل إلى مستوى الندب كما هو الحال في شعر رثاء المدن في العصر المملوكي ، بالرغم مـــن اســـتخدام الشاعر بعض الألفاظ التي تتصل بالندب والنواح ، مثل "نوحوا" ، وتكرار كلمة "لهفي" كثيـــراً . وكذلك حال العديد من القصائد التي قيلت في رثاء دولة المماليك([3]) ، ولعل السبب في ذلـــك أن العثمانيين لم يخربوا المدن ، ولم يعملوا السيف في أهلها كما فعل المغول والصليبيون.

ولم أعثر فيما تيسر لي من مصادر الشعر العربي في العصر العثماني على رثـــاء مـــدن أو ممالك ، الأمر الذي يجعلني أزعم أن جرائم كجرائم المغول لم تتكرر في التاريخ الإسلامي حتـــى مطلع العصر الحديث.

رثاء القادة ورجال الدولة:

يندرج رثاء القادة ورجال الدولة في باب الوفاء لهؤلاء الرجال الذين بهروا الناس بأعمـــالهم وانجازاتهم ، ويلتقي مع المديح في تقريظ بطولاتهم وصفاتهم ، وقد اتـــسم – غالبـــاً – بـــصدق العاطفة في العصرين المملوكي والعثماني ، لأن الشاعر لا يتكلف الرثاء تزلفاً وطمعـــاً ، فكمـــا رأيناه يمتدحهم إعجاباً ببطولاتهم وتقديراً لأفعالهم ، كذلك يرثيهم وفاءً لهم وتخليـــداً لأمجـــادهم ، لذلك ينطوي رثاؤهم على معاني الشجاعة والفروسية والتدين والتقوى وحسن التدبيـــر والكرم..

([1]) بدائع الزهور 271/5.

([2]) يشير بالجراكسة إلى المماليك ، لأنهم العرق السائد في الدولة الثانية ، المماليـــك البرجيـــة ، وأول ســـلاطينهم السلطان الظاهر برقوق ، تولى الحكم سنة 784 هجرية.

([3]) انظر مثلاً : بدائع الزهور 198/5– 201 الحواشي.

من ذلك – مثلاً – قول القاضي محي الدين بن عبد الظاهر([1]) في رثاء السلطان الظاهر بيبرس([2]):

مَا مِثْلُ هَذَا الرزْءِ قَلْبٌ يَحْمِلُ كَلاَّ وَلا صَبْرٌ جَمِيْلٌ يَجْمِلُ
اللهُ أَكبَرُ إِنَّهَا لَمُصِيْبَةٌ مِنْهَا الرَوَاسِيَ خِيْفَةٌ تَتَقَلْقَلُ
لَهْفِي عَلَى المَلِكِ الذِّي كَانَتْ بِهِ الدُّ نْيَا تَطِيْبُ فَكُلُّ قَفْرٍ مَنْزِلُ
الظَاهِرِ السُلْطَانِ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِنَنٌ عَلَى كُلِّ الوَرَى وَتَطُوْلُ
لَهْفِي عَلَى آرَائِهِ تِلْكَ التِّي مِثْلُ السِهَامِ إِلَى المَصَالِحِ تُرْسَلُ
لَهْفِي عَلَى تِلْكَ العَزَائِمِ كَيْفَ قَدْ غَفَلَتْ وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا لا تَغْفُلُ
مَا لِلْرِيَاحِ تَخَوَّلَتْهَا رَعْدَةٌ لَكِنَّهَا إِذْ لَيْسَ تَعْقِلْ تُعْقَلُ
سَهْمٌ أَصَابَ وَمَا رُئِيْ مِنْ قَبْلِهِ سَهْمٌ لَهُ فِيْ كُلِّ قَلْبٍ مَقْتَلُ
أَنَا إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّ عُذْرِيَ وَاضِحٌ وَلَئِنْ صَبَرْتُ فَإِنَّنِّي أَتَمَثَّلُ

عبّر الشاعر عن حبه الصادق للسلطان الظاهر بيبرس فبكاه بأحرِّ عبارات الرثاء ، مبيناً أن القلب لا يحتمل مثل هذه المصيبة ، كما أن الجبال اهتزت خوفاً من هول هذه المصيبة ، والرياح أرعدت باكية ، ويبكي ما انقضى من صفات الظاهر بيبرس ، فيذكر الأمان الذي كان ينعم به الناس ، ويشيد برجاحة عقله وحُسن تدبيره ، ويتحسر على عزائمه التي حمت الإسلام وتصدت لأعدائه .. إلى غير ذلك من القصائد العديدة التي قيلت في رثاء سلاطين المماليك([3]).

([1]) هو الكاتب الشاعر محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر الجذامي المصري ، ولد في القاهرة سنة 620 هجرية، من أشهر كتاب العصر المملوكي ، تدرج في مناصب الدولة حتى تولى وظيفة كاتب سر ديوان الإنشاء في عهد السلطان المنصور قلاوون وبقي فيها حتى كبر سنه ، توفي سنة 692 هجرية. راجع ترجمته في: البداية والنهاية 334/13. شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، طبعة دار الكتب المصرية 101/8– 102 . وأحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق د. يوسف علي طويل ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، دمشق 1987م ، 131/1.

([2]) بدائع الزهور ، الجزء الأول ، القسم الأول 339.

([3]) انظر مثلاً: قصيدة طاهر بن الحسين بن عمر، المعروف بابن حبيب (ت سنة 808 هجرية) في رثاء السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذي قُتِل سنة 693 هجرية . النجوم الزاهرة 21/8.

وكان جمال الدين ابن نباته معجباً بصاحب حماة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل([1])، امتدحه في حياته بغرر القصائد ، ومنها قوله([2]):

أَقْسَمْتُ مَا المَلِكُ المُؤَيَّدُ فِي الوَرَى إِلاّ الحَقِيْقَةَ وَالكِرَامُ مَجَازُ
هُوَ كَعْبَةٌ لِلْفَضْلِ مَا بَيْنَ النَّدَى مِنْهَا وَبَيْنَ الطَّالِبِيْنَ حِجَازُ

ورثاه بعد موته بأصدق المشاعر ، وأرق العبارات ، فقال([3]):

مَا لِلنَّدَى مَا يُلَبِّي صَوْتَ دَاعِيْهِ أَظُنُّ أَنَّ ابْنَ شَادِي قَامَ نَاعِيْهِ
مَا لِلرَجَاءِ قَدْ اِشْتَدَّتْ مَذَاهِبُهُ مَا لِلزَمَانِ قَدْ اسْوَدَّتْ نَوَاحِيْهِ
مَا لِيْ أَرَى المُلْكَ قَدْ فُضَّتْ مَوَاقِفُهُ مَا لِي أَرَى الوَفْدَ قَدْ فَاضَتْ مَآقِيْهِ
نَعَى المُؤَيَّدَ نَاعِيْهِ فَوَا أَسَفَا لِلْغَيْثِ كَيْفَ غَدَتْ عَنَّا غَوَادِيْهِ
وَا رَوْعَتَا لِصَبَاحٍ مِنْ رَزِيَّتِهِ أَظُنُّ أَنَّ صَبَاحَ الحَشْرِ ثَانِيْهِ
وَا حَسْرَتَاهُ لِنَظْمِي فِيْ مَدَائِحِهِ كَيْفَ اسْتَحَالَ لِنَظْمِي فِيْ مَرَاثِيْهِ
أَبْكِيْهِ بِالدُّرِّ مِنْ دَمْعِي وَمِنْ كَلِمِي وَالبَحْرُ أَحْسَنُ مَا بِالدُّرِّ أَبْكِيْهِ
أُرْوِي بِدَمْعِي ثَرَى مَلْكٍ لَهُ شِيَمٌ قَدْ كَانَ يَذْكُرُهَا الصَّادِي فَتُرْوِيْهِ
أُدْيِلَ مَاءَ جُفُونِي بَعْدَهُ أَسَفَا لِمَاءِ وَجْهِي الذي قَدْ كَانَ يَحْمِيْهِ
جَارٍ مِنَ الدَّمْعِ لا يَنْفَكُّ يُطْلِقُهُ مَنْ كَانَ يُطْلِقُ بِالإِنْعَامِ جَادِيْهِ([4])
وَمُهْجَةٌ كُلَّمَا فَاهَتْ بِلَوْعَتِهَا قَالَتْ رَزِيَّةُ مَوْلاهَا لَهَا : إِيْهِ
لَيْتَ المُؤَيَّدَ لا زَادَتْ عَوَارِفُهُ فَزَادَ قَلْبِي المُعَنَّى مِنْ تَلَظِّيْهِ
لَيْتَ الحِمَامَ حَبَا الأَيَّامَ مَوْهِبَةً فَكَانَ يُفْنِي بَنِي الدُّنْيَا وَيُبْقِيْهِ
لَيْتَ الأَصَاغِرَ يُفْدَى الأَكْبَرُونَ بِهَا فَكَانَتْ الشُّهْبُ فِي الآفَاقِ تَفْدِيْهِ

لقد تأسف الشاعر على ما انقضى من أيام السلطان ، وبين وقع خبر وفاته في نفسه ، والحزن الشديد الذي ألَمَّ به جرّاء هذه الرزية ، ثم طفق في تقريض صفات جوده وكرمه ، وتعبيراً عن

([1]) هو صاحب حماة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل علي الأيوبي الحموي ، ولد سنة 672 هجرية ، حفظ القرآن الكريم ، وبرع في الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب والطب والتفسير والمنطق والفلسفة... صنف العديد من الكتب ، منها: المختصر في أخبار البشر ، وناظم الحاوي ، وله كتاب تقويم البلدان وفضائل الفلسفة ، توفي سنة 732 هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 214/9– 215 .

([2]) النجوم الزاهرة 215/9.

([3]) النجوم الزاهرة 215/9– 216 .

([4]) الجادي: السائل.

هول الفاجعة يتمنى الشاعر لو مات البشر جميعاً وبقي السلطان ، كذلك نراه يستغرق في وصف حالته النفسية نتيجة لموت السلطان ، كما في قوله : "أَبْكِيْهِ بِالدُّرِّ مِنْ دَمْعِي وَمِنْ كَلِمِي" ، وقوله : "أُرْوِي بِدَمْعِي ثَرَى مَلْكٍ" ، وقوله: "أُذِيْلَ مَاءَ جُفُونِي بَعْدَهُ أَسَفَا" ، وقوله : "وَمُهْجَةٌ كُلَّمَا فَاهَتْ بِلَوْعَتِهَا" إلى غير ذلك من عبارات الأسى والحزن التي تعجّ بها القصيدة.

وكما عبَّر العديد من الشعراء عن حبهم الصادق لبعض السلاطين والحكام ورثوهم بالقصائد المشجية المثخنة بمشاعر الأسى والحزن كذلك هنالك العديد من الشعراء الذين اتسم رثاؤهم بالطابع الرسمي المُجَامِل ، الذين تكلفوا فيه الجمع بين مشاعر الحزن ومشاعر البهجة ، الحزن على السلطان الميت ، والبهجة التي تستدعيها تهنئة السلطان الجديد بالسلطة والحكم ، كما نرى في قول ابن الوردي([1]):

مَا أَسَاءَ الدَّهْرُ حَتَّى أَحْسَنَا ... رَقَّ فَاسْتَدْرَكَ حُزْناً بِهَنَا
بَيْنَمَا البَأْسَاءُ غَمَّتْ مَنْ هُنَا ... وَإِذَا النَّعْمَاءُ عَمَّتْ مِنْ هَنَا
فَبِحَقٍ أَنْ يُسَمَّى مُحْزِنَا ... وَبِصِدْقٍ حِيْنَ يُدْعَى مُحْسِنَا
فَلَئِنْ أَوْحَشَنَا بَدْرُ السَمَا ... فَلَقَدْ آنَسَنَا شَمْسُ السَنَا
عَلَماً أَبْدَلَهُ مِنْ عَلَمٍ ... ظَاهِرِ الإِعْرَابِ مَرْفُوْعِ البِنَا
فَجَزَى اللهُ بِخَيْرٍ مَنْ نَأَى ... وَوَقَى مِنْ كُلِّ ضَيْرٍ مَنْ دَنَا

يُعَزِّي ابن الوردي السلطان المنصور بموت والده السلطان الناصر محمد بن قلاوون - وذلك سنة 741 هجرية - ويهنئه بتولي السلطة بعده ، ولأن الجمع بين مشاعر الحزن ومشاعر البهجة في آن واحد متكلفاً فإن زخارف الصنعة اللفظية والتعلق بأهداب مصطلحات النحو لم تفلح في ستر فتور العاطفة.

ومثل هذا نلاحظه أيضاً في تهنئة الشاعر صفي الدين الحلّي للسلطان الأفضل محمد بوصوله لحكم حماة سنة 733 هجرية بعد وفاة والده الملك المؤيد ، وتعزيته أيضاً في قصيدة منها قوله([2]):

تَهَنَّ بِالمُلْكِ الذي لَمْ تَكُنْ ... تُلْقَى إِلَى غَيْرِكَ أَرْسَانُهُ
طَلائِعُ الإِقْبَالِ جَاءَتْ ، وَذَا ... مُقْتَبَلُ العُمْرِ وَرَيْعَانُهُ

.....

([1]) تاريخ ابن الوردي 319/2.

([2]) ديوان صفي الدين الحلّي 221– 222.

إِنْ ذُكِـــرَ العِلْـــمُ ، فَنُعْمَانُـــهُ ، أَوْ ذُكِـــرَ الحُكْـــمُ فَلُقْمَانُـــهُ([1])
أَحْزَنَنَـــا فُقْدَانُـــهُ ، فَانْجَلَـــتْ بِالمَلِـــكِ الأَفْـــضَلِ أَحْزَانُـــهُ
سَـــلاَمُ ذِي العَـــرْشِ عَلَـــى نَفْـــسِهِ وَرَحْمَـــــةُ اللهِ وَرُضْـــــوَانُهُ

إنّ مثل هذه الأشعار ظاهرة التكلف واضحة الصنعة ، لأنها تجمع بين عـاطفتين متبـاينتين يصعب الجمع بينهما ، وتدور معظم هذه الأشعار حول تعديد مناقب الميت وصـفاته الحـسنة ، والابتهاج بتولي ابنه السلطة بعده.

وكما بكى شعراء العصر المملوكي سلاطينهم كذلك بكوا النابهين المحسنين من رجال الدولة، وراوح شعرهم بين الندب والتأبين والعزاء.

فمن شعر العزاء قول أبي الفداء([2]) في الأمير جمال الدين خضر ابن ملك الأمـراء عـلاء الدين الطنبغا بحلب ، الذي توفي وهو في ريعان شبابه سنة 737 هجرية([3]):

أَيْبَـسْتَ أَفْئِـدَةً بِـالحُزْنِ يَـا خَـضْرُ فَالدَّمْعُ يَسْقِيْكَ إِنْ لَـمْ يَـسْقِكَ المَطَـرُ
مِنْهَا خُلِقْتَ فَلَـمْ يَـسْمَحْ زَمَانُـكَ أَنْ يَشِيْنَ حُـسْنَكَ فِيْـهِ الـشَّيْبُ والكِبَـرُ
فَإِنْ رُدِدْتَ فَمَـا فِـي الـرَّدِ مَنْقَـصَةً عَلَيْكَ ، قَدْ رُدَّ مُوْسَى قَبْـلُ والخَـضْرُ

يبيّن الشاعر أثر فقد الأمير الشاب في نفوس محبيه ، فيقابل بين دلالة اسمه – خضر – وما أصاب أفئدة محبيه من تيبس وجفاف جرّاء البكاء عليه ، ثم يسترسل ليجعل الدموع تروي تربتـه إن لم تروها الأمطار ، ومن معاني العزاء أن موت الأمير شاباً انتصار للحسن والجمال ، إذ لـم يسمح الزمن للشيب والكبر أن يشين حسنه ، وأن الموت ليس منقصة فقد مات قبله الرسل الكرام، ويتعمد التمثل باسم الخضر بعد ذكر موسى عليهما السلام ليماهي في الخصائص الإيمانيـة بـين الأمير خضر والخضر عليه السلام.

وتزداد مشاعر الحزن على فقد بعض رجال الدولة الذين حازوا إعجـاب النـاس بـسيرتهم الحسنة وأعمالهم الخيرة ، وقد وجدنا حشداً من قصائد الرثاء التي تخلـد ذكـر بعـض القـضاة والكتاب والعلماء ، ومثال ذلك ما نستشعره من معاني الحزن والأسى في قصيدة شهاب الـدين

([1]) النعمان: هو أبو حنيفة الفقيه المشهور. لقمان : هو لقمان الحكيم.

([2]) هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، صاحب حماة ، سبقت ترجمته.

([3]) عماد الدين إسماعيل أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء) ، طبعة مكتبة المتنبـي بالقـاهرة 118/4.

محمود في رثاء قاضي قضاة دمشق نجم الدين أبو العباس بن صَصْري([1]) ، التي يقول في مطلعها([2]):

أَترَى دَرَى دَاعِي المَنِيّةِ مَنْ دَعَا ... أم أيّ ركن للشريعة ضُعضعا
أَمْ أَيُّ طَوْدِ حِجَىً تَرَفَّعَ فِي العُلا ... عَصَفَتْ بِهِ رِيْحُ الصَّبَا فَتَصَدَّعَا
أَمْ أَيُّ نَجْمِ هُدَى هَوَى مِنْ بَعْدِ مَا ... رَدَّ الكَوَاكِبَ عَنْ مَدَاه طُلَّعَا
أَمْ هَلْ دَرَى نَاعِيْهِ أَنَّ الدِّيْنَ وال ... تَقْوَى ونَشْرَ العَدْلِ أَوّلُ مَا نَعَى
للهِ أَيُّ رَزِيَّةٍ أَضْحَى بِهَا ... قَلْبُ الهُدَي حِيْنَ السُّكُوْنِ مُرَوّعَا

يعبر الشاعر في مطلع قصيدته عن هول المصيبة التي حلت بالشريعة والأمة الإسلامية جرّاء موت قاضي القضاة "ابن الصرصري" ، حيث يتساءل مستهجناً إن كان داعي الموت يعلم صفات القاضي ، وكيف تضعضع ركن الشريعة من فقده ، ثم يستطرد في تعديد ما فُقِد من مناقب القاضي ، رجاحة العقل ، والتقوى ، والعدل ..

ثم يسترسل في تأبين القاضي ابن صَصْري وتقريض ما اشتهر من صفاته في قوله([3]):

قَاضِي القُضَاةِ ومَنْ حَوَى رُتَباً سَمَتْ ... عَنْ أَنْ تُسَامَ وبَزَّتْ مَنْ سَعَى
شَيْخُ الشُّيُوْخِ العَارِفِيْنَ ومَنْ رَقَا ... رُتَبَ السُّلُوْكِ تَعَبُّداً وَتَوَرُّعَا
يَأْتَمُّ مِنْهُ السَّالِكُوْنَ بِعَارِفٍ ... بَلَغَ العَنَاءُ بِهِ المَقَامَ الأَرْفَعَا

([1]) الحافظ الشيخ الإمام العالم قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس بن صَصْرى الرَّبَعيّ التغلبيّ الدمشقي الشافعي . ولد سنة 655 هجرية ، تعلم على أيدي أجلة علماء دمشق ومصر ، وتبحر في اللغة العربية وآدابها ، وتفقه في علوم الدين ، ودخل ديوان الإنشاء سنة 678 هجرية ، ونظَمَ ونَثَر، وصنف الكتب ، واشتهر بسرعة بديهته وسعة معرفته وعلمه ، إضافة إلى ورعه وتقواه وكرمه. تولى القضاء سنة 702 هجرية ، وبقي فيه حتى توفي فجأة سنة 723 هجرية. ومن صفاته التي ذكرها الصفدي نورد قوله : "وله أموال ضخمة ومماليك وخدم وحشم وحشمة ، وينطوي على تعبّد وديانة وعِفّة في الأحكام وأمانة ، وكان بصيراً بالأحكام مسعوداً فيها ، قل أنْ أتى إليه زور إلا وعرفه بديهاً ، .. ويجتمع الناس عنده في بستانه اجتماعاً عاماً ، ويمد لهم خواناً قد نوّع فيه طعاماً يرون فضله تامّاً ، إلى غير ذلك من أنواع الحلوى ، والمأكل التي لا منَّ فيها ولا سلْوى . يقصده الشعراء في المواسم ، ويرون ثغور جوده وهي بواسم ، لا يخشون مع ذلك بَوّابه ولا عَيْنه ولا حُجّابه ، ويعتدّ هو أن تلك الجائزة واجبة".

صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر ، تحقيق الدكتور علي أبو زيد وآخرون ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر بيروت ، دار الفكر دمشق 1998م ، 330/1.

([2]) أعيان العصر وأعوان النصر 331/1.

([3]) أعيان العصر وأعوان النصر 332/1.

وَجَــرَتْ لَــهُ عَــيْنُ اليَقِــيْنِ فَفَجَّــرَتْ فِـــيْ حَالَتَيْـــهِ لِكُـــلِّ ظَـــامٍ مَنْبَعَـــا
حَاوِي العُلُوْمَ فَمَا تَفَــرَّقَ فِــي الــوَرَى إلاّ الَّـــذِي مِنْهَـــا لَدَيْـــهِ تَجَمَّعَـــا
ورِيَاسَــةٌ مُــذْ كَــانَ لَــمْ نَعْــرِفْ لَهَــا إلاّ إِلـــى رُتَـــبِ الكَمَـــالِ تَطَلُّعَـــا
وكِتَابَـــةٌ يَكْـــسُوْ الـــسِّجِلَّ جَلالُهَـــا تَاجَـــاً يَـــزِيْنُ النَيِّـــرَاتِ مُرَصَّـــعَا
وبَلاغَـــــــةٌ لا قَلْـــــــبَ إلاّ وَدَّ أَنْ تُمْلَـــى وَتُنْـــشَرَ لَـــوْ تَحَـــوَّلَ مُـــسْمِعَا
وَفَــصَاحَةٌ فِــي القَــوْلِ أَتْقَــنَ عِلْمَهَــا نَظْمـــاً وَنَثْـــراً حِـــيْنَ حَازَهُمَـــا مَعَـــا
وَتَثَبُّـــتٌ فِـــي حُكْمِـــهِ ، وَمَـــضَاؤُهُ تَعْنُــو لَــهُ البِــيْضُ القَوَاضِــبُ خُــضَّعَا
وَعِبَـــارَةٌ كَالنِّيْـــلِ نِيْـــلَ بَيَانُهَـــا مَـــعْ أَنَّهَـــا أَرْوَى وَأَعْـــذَبَ مَـــشْرَعَا
وَعِبَـــادَةٌ فِـــي اللَّيْـــلِ يَجْزِيْـــهِ بِهَـــا فِي الحَشْرِ مَنْ يَجْزِي الـسُّعُوْدَ الرُكَّعَـا
مَـــنْ لِلأَيَـــامَى وَاليَتَـــامَى فَـــارَقُوا بِـــالرَّغْمِ ذَاكَ الكَافِـــلَ المُتَبَرِّعَـــا

وكما هو حال شعر التأبين الذي تهدأ فيه العاطفة وتتيح مساحة أوفر لتعديد مناقــب الميــت وتمجيدها ، يسترسل الشاعر في تعديد مناقب قاضي القضاة "ابن الــصرصري" فيــذكر الرتــب السامية التي حازها ، ثم يتوقف ملياً عند ورعه وتقواه وجهاده النفس حتى بلغ المقــام الأرفــع ، وأسبغ الله عليه نعمة المعرفة بكل العلوم ، وجعله الله مرجعاً لكل طالب معرفــة ، وذكــر مــن علومه ومعارفه رياسته في القضاء ، وجمال خطه وبراعة تصانيفه ، وفــصاحة لغتــه وبلاغــة أساليبه ، وبعد أن استقصى صفات البراعة والاقتدار على فني النثر والشعر ، ختم بتمجيد صفات ورعه وتقواه وكفالته للأيامى والأيتام.

وشعر رثاء رجال الدولة المملوكية التي امتدت زهاء ثلاثة قرون تقريباً كثير ككثــرة عــدد الوظائف التي شغلوها ، وتنوع المهام التي كانوا يقومون بها ، وقــد اشــتملت كتــب الوفيــات والتراجم وكتب التاريخ على رثاء الوزراء والأمراء والولاة([1]) ، والقــضاة([2]) ، والأطبــاء([3])،

([1]) انظر مثلاً: - رثاء بني العباس. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص 240.
- رثاء والي واسط والبصرة الملك عز الدين النيسابوري. السابق ص 267– 269.
- رثاء ناظر الجيوش المصرية فخر الدين محمد بن فضل الله . المختصر في أخبار البشر 105/4.

([2]) انظر مثلاً: - رثاء قاضي طرابلس شمس الدين محمد البعلي. المختصر في أخبار البشر 101/4.
- رثاء قاضي قضاة حماة ابن العديم . المختصر 110/4 . وتاريخ ابن الوردي 295/2.
- رثاء قاضي القضاة شرف الدين هبة الله البارزي . المختصر في أخبار البشر 126/4-127.
- رثاء قاضي قضاة الديار المصرية جلال الدين محمد المعروف بجار الله . النجوم الزاهرة 165/11.

([3]) انظر مثلاً: رثاء أمين الدين سليمان بن داود الطبيب . تاريخ ابن الوردي 289/2.

والعلماء والكتاب والأدباء وغيرهم من رجال الدولة([1]) ، وهو شعر يَصُبُّ غالباً في خانة التأبين والعزاء ، ويشتمل على نظرات فلسفية عميقة في حقيقة الحياة والموت ، من ذلك ما نراه في قول ابن نباته([2]):

وَمَا النَّاسُ إلاّ رَاحِلٌ بَعْدَ رَاحِلٍ إذَا مَا انْقَضَى عَصْرٌ مَضَى بَعْدَهُ عَصْرُ
تَبَدَّتْ لَدَى البَيْدَا مَطَايَا قُبُورِهِمْ لِيَعْلَمَ أَهْلُ العَقْلِ أَنَّهُمُ سَفْرُ([3])

ولم تختلف معاني شعر رثاء السلاطين ورجال الدولة في **العصر العثماني** عمّا كانت عليه في العصر المملوكي ، فالمعين الذي نهل منه شعراء العصرين معانيهم واحد ، والموت في حدّ ذاته يستدعي المعاني الدينية ، ثم تتنوع باقي معاني الرثاء حسب تنوع مناصب وصفات المرثيين، فما يقال في رثاء سلطان يختلف عمّا يُقال في رثاء عالم أو فقيه أو كاتب ، وإن اشتركوا في المعاني الدينية كطاعة الله تعالى والتقوى والأخلاق الكريمة .. فمما قيل في رثاء السلاطين العثمانيين نورد قصيدة محمد بن بستان المفتي([4]) في رثاء السلطان سليمان القانوني([5]) التي يقول فيها([6]):

أَلا أَيُّهَا النَّاعِي كأَنَّك لا تَدْرِي بِمَا قُلْتَ مِنْ سُوْءِ المَقالةِ والنَّشرِ
سَلَلْتَ سيوفَ الموتِ في الدهرِ بَغْتَةً وقد بلغَ السيلُ الزُّبَى من جَوى الصدرِ
وشَقَّتْ قلوبَ المسلمين جراحةٌ بصارمِ سيْفٍ قد مضَى ماضِيَ الأمرِ
سهامُ المَنايا من قِسيِّ صُروفِها أصابتْ بسهمٍ في ابْتسامٍ من الفجرِ

([1]) انظر مثلاً: - رثاء أثير الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله . الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب ص329.

- رثاء ابن هشام صاحب السيرة النبوية الشريفة. البدر الطالع 277/1.

- تعزية كاتب سر طرابلس تاج الدين محمد بن البارنباري في ولديه . المختصر في أخبار البشر 134/4.

- رثاء الحافظ ابن كثير صاحب كتاب البداية والنهاية ، وتفسير القرآن الكريم وغيرها من الكتب . النجوم الزاهرة 98/11- 99.

([2]) ريحانة الألبان 191/1.

([3]) سَفْر: درس وبليَّ . يقصد أن أجسادهم بليت ، والسَفْر أيضاً الرحيل.

([4]) هو محمد بن مصطفى الرومي ، مفتي الديار المصرية ورئيس علمائها ، عُرِف أبوه بلقب بستان ، تدرج في العديد من المناصب ، ولي قضاء الشام سنة 981 هجرية ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء العسكر في القسطنطينية، ثم مفتياً سنة 997 هجرية ، توفي بالقسطنطينية سنة 1006 هجرية. راجع : خلاصة الأثر 223/4.

([5]) توفي السلطان سليمان القانوني سنة 974 هجرية.

([6]) نفحة الريحانة 74/3– 75.

نسيمُ الصَّبا رقَّتْ بأشْجانِ فُرقةٍ ... حمامةَ ذات السِّدرِ حنَّتْ من الذُّعرِ
همامٌ على هامِ المَمالِك تاجُه ... أمينٌ رشيدٌ في الخلافةِ ذو قَدْرِ
أأعْنِي جواداً في جوادٍ بذكْره ... لقد سارتِ الرُّكبان في البرِّ والبحرِ
عزيمتُه في البحر كانت عظيمةً ... وهِمَّتُه فاقتْ على الأنْجُمِ الزُّهْرِ
وأيامُه كالشمسِ كانت مضيئةً ... وأعوامُه في الحسنِ أبْهَى من البدرِ
وما قيل إجْمالٌ لبعضِ صفاتِه ... ولا يُمكِن التفصيلُ بالنظمِ والنثرِ
فهاتيك أوصافٌ لَعَمْري جليلةٌ ... فدُونَكها أبْهَى من الزَّهْرِ والزُّهْرِ
على عكس ما طاف البلادَ بجُنْدِه ... كشمسٍ غَرِيباً غاب في مَغْرِب القبرِ
صحائفُ أكْوانٍ تدبَّرتُ حَلَّها ... فصادفْتُها شرحاً لفنٍ من الهجرِ
على صفحةِ الخدَّيْن أمليْتُ مَا جَرى ... بأقلامِ أهْدابٍ من البُؤْس والضُّرِّ

فبعد أن يصور الشاعر وقع خبر وفاة السلطان في نفسه ، ويسترسل في إظهار أثر هذه المصيبة على المسلمين ، ينتقل إلى المعاني التي تتصل بالحكم وصفات السلطان الحاكم ويجملها في قوله : "أمينٌ رشيدٌ في الخلافةِ ذو قَدْرِ" ، ثم يعطف عليها بعض الصفات كعلو الهمة والشجاعة والكرم ، ويلمح إلى بعض إنجازاته الحربية فيقول : "عزيمتُه في البحر كانت عظيمةً.." ، ويشير إلى استقرار حكمه وحُسن إدارته لشئون البلاد فيقول: "وأيامُه كالشمسِ كانت مضيئةً .." ، ثم يقر الشاعر بأن صفاته تعزّ على الحصر، وأن ما ذكره من هذه الصفات هي ما كتبته الأهداب الحزينة بدموع العينين على صفحة خده ..

المصادر والمراجع

1- أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مطبعة القدس، القاهرة 1351هـ.

2- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت 1988م.

3- أحمد صادق الجمال: الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1966.

4- أحمد فوزي الهيب: الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986م.

5- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: الخطط ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت 1998م.

6- جلال الدين السيوطي: حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م.

7- جمال الدين بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية، 1956م.

8- درويش الجندي: ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده ، طبعة دار نهضة مصر 1969م.

9- ديوان ابن النقيب ، تحقيق عبد الله الجبوري ، طبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق 1963م.

10-ديوان ابن الوردي ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية 1300هـ.

11-ديوان ابن مليك الحموي ، المطبعة العلمية ، بيروت 1312هـ.

12-ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1973م.

13-ديوان صفي الدين الحلي ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ).

14-السلوى الأندلسي، عبد القادر بن عبد الرحمن: الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 325 تاريخ تيمور.

15-شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت 1992م.

16-شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد حوَّر ، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي– الإمارات العربية المتحدة 2003م.

17-شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي: ريحانة الألِبَّاء وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1967م.

18-عبد الفتاح سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ، ط3 ، مكتبة الأنجلو المصرية 1994م.

19-عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت 1968م.

20-على بن أبي بكر الهيثمي: مجمع الزوائد ، طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة 1407هـ.

21-عمر موسى باشا: ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف، مصر 1992م.

22-عمر موسى باشا: تاريخ الأدب العربي– العصر العثماني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر، بيروت 1989م.

23-قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، مصر 1998م.

24-القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية 1913.
25-محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ).
26-محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي: ذيل نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1971م.
27-محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي: نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1968م.
28-محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي: فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة ، بيروت 1973م.
29- محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وضع حواشيه خليل المنصور، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت1.
30- محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي ، طبعة دار المعارف بمصر 1971م.
31- محمد قطب: واقعنا المعاصر ، الطبعة الأولى ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية 1986م.
32- محمود الربداوي: ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، طبعة دار قتيبة 1982م.
33- نبيل أبو علي: البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، الطبعة الرابعة ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2005م.
34- نبيل أبو علي: قصة الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، مطبعة المقداد ، غزة 1992م.
35- نجم الدين محمد بن محمد الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان حبور ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1979م.